الحافظ

من أسماء الله الحُسنى الحافظ .

الحافظ اسمٌ من أسماء الله الحُسنى ، وهو اسمٌ زائدٌ على الأسماء التسعة والتسعين التي ورد فيها الحديث ، الحافظ في اللُّغة هو : الحارس ، وحفِظَه حفظاً أي : حرسه حراسةً ، وحَفِظَ المال أي : رعاه ، وحَفِظَ القرآن أي : استظهره ، وهذا حافظٌ من قومٍ حُفَّاظ أي : من الذين رُزِقوا حفظ ما سمعوا .

والحقيقة أنه من نعم الله الكبرى على الإنسان أن تكون له حافظةٌ قويّة أو ذاكرةٌ قويَّة ، لأنَّ الإنسان إذا استمع كثيراً ونسي الذي استمعه ، فماذا يستفيد منه ؟ حينما تجلس في مجلس ، أو حينما تُلقي كلمة ، أو حينما تتحدَّث إلى صديق ، فإذا خانتك ذاكرتك فلم تحفظ النصوص ولا القصص ، ولا الوقائع ، ولا الأفكار ، ولا التحليلات ، ولا التعليقات كيف تستطيع أن تصول وتجول ؟ لذلك نعمة الذاكرة القويَّة من أعظم النعم على الإنسان ، إلا أنَّ العلماء يرون أنَّ الذاكرة متعلِّقةٌ بالاهتمام ، وهذا تعلُّقٌ عادل فالشيء الذي تهتمُّ به تحفظه .

ادخل إلى محلٍّ تجاري فيه خمسون ألف قطعة ، وكل قطعة لها

اسم ولها قياس ، ولها سعر ، ولها وضع معيَّن ، ولها مصدر ، ولها منشأ ، فتجد صاحب المحل ـ لأنَّ رزقه متعلِّقٌ بهذه البضاعة ـ يحفظها جميعاً ، يحفظ حالاتها وأنواعها ، وقياساتها ، ومصدرها ، ومنشأها ، وأسعارها ، كل ذلك في ذاكرته ، بل قد يقول أحياناً لغلامٍ في المحل : اصعد تجد قطعةً واحدةً بقيت من هذا الصنف فائتني بها . . معنى ذلك أنَّ المحل كلَّه في ذاكرته .

فقل لي : ما الذي تهتمُّ له ؟ أَقُل لك إنَّك تحفظه ، ففي ذلك عدل فقد قال الله تعالى :

﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴾ [الأعلى : ٦ـ٧] .

كان عليه الصلاة والسلام إذا أنزل الله على قلبه الشريف سورةً من كتاب الله حفظها من أوَّل مرة ، والذي يحفظ دليل أنَّه مهتم بما يحفظ ، فالأشياء التي لا تعنيك لا تحفظها بل إنك تنساها ، بل إنَّ الذاكرة أمرها عجيب ، فالذاكرة كما قال لي بعضُ الإخوةِ العلماءِ المختصِّين في علم التشريح والفيزيولوجيا ـ علم وظائف الأعضاء ـ : « **إنَّ مكان الذاكرة في الدماغ يتَّسع لسبعين مليار صورة ، وهذه الصور مبوَّبة ومصنَّفة ، والذواكر أنواع كثيرة لا حصر لها ، منها الذاكرة السمعية ، والذاكرة الشمِّية ، والذاكرة البصريّة ، وذاكرةٌ للألوان ، وذاكرة للوجوه ، وذاكرة للأسماء ، وذاكرة للأرقام ، وإنَّ هذه الصور مرتَّبة ترتيباً زمنياً** » ، فالذي تحتاج إليه كلَّ يوم موضوع في أقرب مكان ، والذي قلما تحتاج إليه يوضع في مكان متوسِّط ، والذي نادراً ماتحتاج إليه في مكان بعيد ، والذي لا تحتاج إليه أبداً يمحى من الذاكرة ، بل إنَّ طريقة الحاسوب في قراءة المعلومات تقليدٌ لطريقة الذاكرة في استرجاع المعلومات .

أنت إذا شممت رائحةً تحاول أن تتعرَّف إلى هذه الرائحة ، فما الذي يحدث في الذاكرة ؟ إنَّ أثر هذه الرائحة يمرُّ على كلِّ ذاكرات الشم ، أكثر من عشرة آلاف ذاكرة شمِّية ، فحيثما يكن التوافق تقل : إنها رائحة الياسمين ، أو الفل . . وإلى آخره من الروائح .

الذاكرة وحدها من آيات الله العجيبة الدالة على عظمته ، وأنت تتذكَّر الشيء الذي تهتمُّ به ، وهذا عدلٌ من الله عزَّ وجلَّ .

قد تجد إنساناً ، نسَّاء ، كثير النسيان في موضوعات لا تعنيه ، أما في الموضوعات التي تعنيه فكأنَّ ذهنه مسجِّلة ، سريعاً ما يحفظ ، فلذلك إذا اهتمَّ أحدنا بكتاب الله عزَّ وجلَّ يحفظه ، وإذا اهتمَّ أحدنا بالحديث الشريف يحفظه ، وإذا اهتمَّ أحدنا بالمعاني الدقيقة التي هي كنزٌ ثمين والمتعلِّقة بكتاب الله يحفظها .

وقد يقول أحدهم : والله ما سمعت معنىً دقيقاً متعلِّقاً بكتاب الله إلا حفظته ، وهذا الإنسان نفسه قد ينسى أشياء واضحة جداً وقريبة جداً لأنَّها لا تعنيه ، فالمؤمن مشغول بموجبات الإيمان .

قلنا : هذا حافظ من قومٍ حفَّاظ ، أي من الذين رزقوا حفظ ما سمعوا ، والقاعدة : اكتب أجمل ما قرأت ، واحفظ أجمل ما كتبت .

لذلك ، فالإنسان أحياناً يأتي إلى مجلس علم ، فلماذا يطرب لما سمع ؟ لأنَّ هذا الذي أُلقي شفاهاً من الذاكرة أجمل ما كُتب ، والذي كُتب أجمل ما قُرىء ، والذي قُرىء أجمل ما سمع . . فهناك كلام يسمع ، وهذا المسموع كلام فيه الشيء الحسن ، فيه أيضاً كلام يلقى على عواهنه ، ولكن المكتوب أرقى لأنَّه مدروس وهو خلاصة

المسموع ، وخلاصة المكتوب يُحْفَظ .

فأحياناً تجد إنساناً يصغي إلى درس إصغاءً تاماً ، لأنَّ الأمور كلَّها التي تطرح في الدرس هي أجملُ ما تحويه ذاكرة المتحدث ، وهي أجمل التحليلات ، وأجمل التعليقات ، وأجمل الإرشادات .

فقد حدثني أخ قال لي : كنت في أمريكا وهم الآن يسجلون الكتب الثمينة على أشرطة بصوت يحبونه ، فالإنسان أحياناً يكون لديه وقت ميت ؛ وهذا تعريف للوقت الضائع بالتعبير الاقتصادي ، وهذا الوقت هو وقت انطلاقه بمركبته إلى عمله ، ووقت الرياضة أيضاً ، فأصبح هناك بين كل الناس سلوكٌ شائعٌ ، وهو أن يمضي هذا الوقت في طريقه إلى عمله وفي عودته من عمله وفي ساعات الرياضة في سماع شيءٍ ثمين ، وهذا الشريط من نعمة الله على الناس ، فيمكنك أن تستمع إلى درس علم ، أو إلى تفسير ، أو حديث ، أو إلى درس سيرة ، وأنت في بيتك ، أو وأنت تعمل ، أو وأنت في مركبتك ، أو وأنت في السفر ، المؤمن الموفَّق لا يُضيِّع ثانيةً من وقته ، فبإمكانه حتى في الأوقات الميتة أن يستفيد منها في طلب العلم .

قالوا : هناك رجلٌ حافظُ العين ، أي لا يغلبه النوم لأنَّ العين تحفظ صاحبها ، فهو أثناء جلوسه في مكان ، يكون هذا المكان تحت سيطرة عينيه ، أما في الليل فالمكان يصبح تحت سيطرة أُذنيه ، أرأيتم إلى نعم الله عزَّ وجلَّ ، لذلك أصغِ بسمعك للآيات التي قال الله تعالى فيها :

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ

سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [القصص : ٧١ـ٧٢] .

﴿اللَّيْلَ﴾ إن الحاسَّة الأولى فيه السمع.. لذلك قال ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾.. والعكس.. الحاسة الأولى في ﴿ٱلنَّهَارَ﴾ هي العين.. ولذلك قال ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ .

أنت في النهار مسيطرٌ بعينيك.. وفي الليل مسيطرٌ بأُذنيك ، فإذا دخلت فويسقة إلى بيتك ـ الفأرة ـ وقد سماها النبي ﷺ فويسقة ، وماتت تحت السرير فلا تراها عينك ولا تسمعها أُذنك ، فالحاسة الثالثة التي تكشفها لك حاسة الشم ، فأنت بالحواس الخمس مسيطرٌ على العالم الخارجي ، والآلات الحديثة استطالةٌ للحواس.. فالمجهر استطالةٌ للعينين ، وكذلك المنظار ـ التليسكوب ـ .

فمن منكم اطلّع على كتاب الإحياء وهو من أعظم الكُتب التي تركها الغزالي ، هذا الإمام العظيم ، فالإحياء يعدُّ أوَّل كتاب في علم النفس الإسلامي ، ففيه أحوال النفس ، ودقائق النفس ، وأمراض النفس ، وفضائل النفس ، ومناهج لتحلية النفس بالكمال ، وهو من أروع ما كُتب ، ولكن هل تصدِّقون أنَّ الإحياء كتبه الإمام الغزالي من ذاكرته وهو في بلاد الشام ؟! وكذلك زاد المعاد على مافيه من التحريرات الفقهية والدراسات الحديثية ألَّفه ابن القيم في حال السفر لا الإقامة ، والقلب ـ كما قال ـ بكل واد منه شعبة وليس في حوزته المصادر التي ينقل منها ما يحتاج إليها .

إذاً من أوتي حافظةً جيِّدةً فقد أوتي خيراً كثيراً.. وقد علَّمونا ونحن في الجامعة أنَّ الذكاء شيء والذاكرة شيءٌ آخر ، فما كلُّ ذكيٍّ

ذا ذاكرةٍ قويَّة ، وما كلُّ ذي ذاكرةٍ قوية ذكياً . . قالوا : إلاّ أنَّ هناك منطقةً مشتركةً بين دائرتين متداخلتين وهذه المنطقة هي القاسم المشترك بين الذكاء والذاكرة ، فكل إنسان يتمتَّع بذكاء فلا بدَّ من أن يستعين بذاكرة ، وكل إنسان عنده ذاكرة جيِّدة لا بدَّ من أن يكون على شيءٍ ما من الذكاء ، إلا أنَّ الذاكرة شيء ، والذكاء شيءٌ آخر .

قيل مرةً للشيخ : إنَّ فلاناً حفظ كذا . فتبسَّم وقال : زادت نسخُهُ نسخةً . فالحفظ وحده لا يقدِّم ولا يؤخِّر ، لكنَّ العقل والتدبُّرَ والفهم العميق هو الذي يرقى بالإنسان .

الحافظ .هو الذي يثبّتك على الطريق البيّن المستقيم الذي لا ينقطع ، ويحفظك على المواظبة عليه ، أمّا الحَفَظَةُ الذين يحصون أعمال العباد ويكتبونها عليهم هم من الملائكة ، والمحافظة : المواظبة على الأمر . . أحبُّ الأعمال إلى الله أدومها وإن قَل .

المحافظة تصنع تراكم المعلومات أو غيرها ، والإنسان بلا تراكم لمعلوماته لا يحقق شيئاً .

عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « **سَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَاعْلَمُوا أَنْ لَنْ يُدْخِلَ أَحَدَكُمْ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ ، وَأَنَّ أَحَبَّ الأَعْمَالِ إِلَى اللهِ أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ** » . [صحيح البخاري] .

فلو ثَبَتَّ على المجيء لحضور درس ما من دروس العلم فاثْبُتْ عليه تتراكم لديك الحقائق ، وإذا ثبتَّ على صلاة أو على صدقة ، أو ثبتَّ على ذكر ، أو على تلاوة . . فأحبُّ الأعمال إلى الله أدومها وإن قل .

المحافظة . . أي المواظبة على الأمر ، ومنه قوله تعالى :

﴿ حَـٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ﴾[البقرة: ٢٣٨].

وقيل : المحافظة هي المراقبة ، والمحافظة الذَّبُّ عن المحارم ، أي : الدفاع عن المحارم ، والمحافظة على العهد الوفاء به والتمسُّك بالودِّ.. هذه اللُّغة ، فإذا قلنا الله جلَّ جلاله هو الحافظ ، فقد حفظ خلقه وعباده من كلِّ سوء ، وحفظ عليهم ما يعملون ، وحفظ السموات والأرض بقدرته.. ﴿ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾.. فقد قال تعالى :

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥] .

أحياناً يقول أحدهم : هذا الأمر فوق طاقتي ، لا أستطيع أن أستوعبه ، ولا أن أُحيط به ، ولا أن أديره فهو يحتاج إلى خمسة أشخاص لإنجازه ، ولكن الله جل جلاله يقول : ﴿ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ .

وقد قال تعالى في سورة يوسف :

﴿ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۖ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَـٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [يوسف: ٦٤] .

وإذا العناية لاحظتك عيونها نَمْ فالمخاوف كلُّهُنَّ أمانُ
واصعد بها العنقاء فهي حباله واقتدْ بها الجوزاء فهي عنان

وقيل : قم ـ للعمل ـ فالمخاوف كلُّهنَّ أمان .

إذا حفظك الله عزَّ وجلَّ سخَّر لك كل شيء ؛ حتى أعداؤك هم في

خدمتك ، ﴿ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ .

فالإنسان قد يُحكم الأقفال . . كما حدّثوني عن أحد الصاغة ، وهو يعدُّ الأول في صنعته وليس له شبيهٌ ، قام بصنع صندوقٍ صنعه من الحديد بحيث لا يمكن أن يُفتح ، وبقدرة قادر دخل اللصوص وفتحوه وأخذوا كلَّ ما فيه . . فهو قد ظنَّ أنَّ هذا الصندوق ﴿ خَيْرٌ حَٰفِظًا ﴾ . . لكنَّ الله هو خير حافظ . . ﴿ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ .

الإنسان كثيراً مايأخذ بالأسباب إلى حدّ غير معقول ويعتمد عليها ، وينسى أنَّ الله هو ﴿ خَيْرٌ حَٰفِظًا ﴾ ، فيؤتى من مأمنه ، يُؤتى وهو في أعلى درجات اليقظة ، يُؤتى الحَذِرُ من المنطقة المطمئن إليها ، وهذا من آيات الله فقد قيل : عرفت الله من نقض العزائم . . جميلٌ جداً أن تأخذ بالأسباب وأن تأخذ الاحتياط ، ولكنَّ الأجمل من ذلك أن تأخذ بالأسباب وأن تعتمد على الله الواحد القهَّار ، أن يكون اعتمادك على الله حقاً مع الأخذ بالأسباب .

أحياناً يقولون : قمنا بعمل مراجعة كاملة على السيارة فاطمَئِنْ ، فتقطعه في الطريق ، وأحياناً تُجرى عليها مراجعة كاملة ويقول صاحبها أنت يا رب المسلِّم وأنت الحافظ . . فالقضية قضية دقيقة ؛ فاعقل وتوكل . فيجب أن تأخذ بكلِّ الأسباب وألا تعتمد في حفظها لك إلا على الله عزَّ وجلَّ .

﴿ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ﴾ . . إعراب حافظاً : تمييز . . أي : اللهُ خيرٌ ، خيرٌ معطياً ، خيرٌ آخذاً ، خيرٌ حافظاً و﴿خيرٌ﴾ لفظٌ مبهم ، لولا التمييز لصدق على أشياء كثيرة . . ﴿ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ . . أي حفظٌ مطلق .

قد يسافر الإنسان ؛ فَهلْ في الأرض جهةٌ يمكن أن ترافقه وأن تخلفه في بيته وسفره معاً وفي وقت واحدٍ ؟ مستحيل ذلك إلا على الله ، فإذا سافر الإنسان يقول : اللهمَّ أنت الصاحب في السفر ، والخليفة في الأهل .

وقد يتعرض طفل صغير لحادث ؛ كأن يقع على رأسه إبريقٌ من الشاي الساخن ويشوَّه وجهه ، وكلَّما ألقى الأب على ابنه نظرةً شعر بحرقةٍ في قلبه ، فالإنسان أثناء سفره يفكر هل أهله بخير ، ويضرع إلى الله ألا تكون هناك مشكلة لديهم ، ويسأل هل هم مستقرّون في البيت ، وهل حدث لهم حادث مزعج . . فمن الذي يحفظ أهلك في غيبتك ؟ الله جلَّ جلاله . فأنت إذا سافرت حتى تكون مطمئناً فوّض الأمر إلى الله وادعُ بهذا الدعاء : اللهمَّ أنت الصاحب في السفر ، والخليفة في الأهل اللهم اصحبنا في سفرنا واخلفنا في أهلنا . .

كلام ربنا كلام رائع جداً : ﴿ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ﴾ . . يحفظ لك صحَّتك ، ويحفظ لك مالك . . وقد يسافر المرء إلى بلد بعيد ومعه أموال طائلة ، وفيه يقظة وحرص وانتباه ولا ينقصه شيء ، فتسرق محفظته وفيها كل لوازمه الشخصيَّة من جواز للسفر ، للشيكات المصرفية ، والمعاملات والوثائق الضرورية ، وبطاقة الطائرة ، فيصبح شريداً متسكِّعاً في الطرقات . . ﴿ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ﴾ . . أي يحفظ لك صحَّتك ، ويحفظ لك أهلك وأولادك ، ومالك ، وبيتك ، ومحلَّك ، ومستودعك ، وبضاعتك ، وسمعتك ، ومكانتك . . ﴿ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ﴾ .

كن لي كما أريد أكن لك كما تريد . . كن لي كما أريد ولا تُعْلِمني بما يُصلحك .

وهذه الآية الكريمة وردت على لسان سيدنا يعقوب فقد قال تعالى : ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾أي فالله خيرٌ حافظاً يحفظ ابني يوسف ، وسيرحم كِبَرِي وضعفي ووجدي بولدي ، وأرجو من الله أن يردَّه علي ويجمع شملي به إنَّه أرحم الراحمين .

لذلك فاليأس من رَوْح الله كُفر ، اليأس والقنوط يساويان الكُفر ، قال تعالى : ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف : ١٧] .

وقال تعالى :

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر : ٩] .

هذا قرآننا الكريم الذي نزل على سيِّد المرسلين هو هو الذي بين أيدينا ، ليس فيه حرفٌ زائدٌ ولا حرفٌ ناقصٌ ، وجميع المحاولات التي جرت لتغيير كلماته أخفقت ، فقد طُبع في العهد العثماني خمسون ألف نسخة حذفت منها كلمة واحدة من سورة آل عمران في قوله تعالى : ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[آل عمران : ٨٥] .

وقد حذفوا كلمة واحدة ولم يطبعوها وهي كلمة ﴿غَيْرَ﴾ فأصبحت الآية : ﴿وَمَن يَبْتَغِ . . . . . ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ فأتلفت النسخ وأحرقت ، فالله ـ عزَّ وجلَّ ـ تولَّى بذاته حفظ كلامه ، فلا يمكن لجهةٍ في الأرض أن تُبدِّل أو أن تغيِّر فيه ، وليس معنى هذا أنَّه لا تجري محاولات بل تجري وما أكثر ما تجري ، ولكنَّها لا تنجح ، ولن تنجح بإذن الله .

وقد قال العلماء أيضاً : « **من لوازم حفظ القرآن الكريم حفظ سنَّة**

رسول الله ﷺ **لأنَّها مبيِّنة** » ، فالقرآن قانون والسُّنة معه كمرسوم تفسيري تشريعي ، إذا حافظنا على القانون ولم نحافظ على المرسوم لم نستفد من ذلك شيئاً ، لأنَّ القانون مُقنِّنٌ والمرسوم مفسِّر . . فمن لوازم حفظ كلامه حفظ سنَّة نبيِّه ﷺ . .

لذلك هؤلاء العلماء الأجلاَّء أمثال البخاري ومسلم وابن ماجه والترمذي والإمام مالك وغيرهم ، هؤلاء العلماء الذين شمَّروا ودرسوا حديث رسول الله ﷺ ودرسوا أحوال الرجال ، وصنَّفوا ، وعدَّلوا وجرّحوا ، واعتمدوا قواعد دقيقة جداً لتدوين الحديث ، هؤلاء أعانهم الله على أعمالهم ، ويسَّر الله لهم عملهم ، لأنَّه تولَّى بنفسه حفظ كتابه وحفظ سُنَّة نبيِّه ﷺ . . لقوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ .

وفي سورة الأنبياء ، يقول الله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٢] .

أي مدققين فيما يعملون ومراقبين لهم . والحفظ له معنيان : إما أن أحفظ كلَّ ما تفعله وكلَّ ما تقوله ، وأسجل عليك كلَّ ما تفعله وكلَّ ما تقوله ، وإما أن أحفظك من كلِّ مكروه . . فالمعنى الأول هو العلم ، والمعنى الثاني هو التربية ، أي حفظٌ في الذاكرة وإحصاء ، وحفظٌ من كل مكروه وأذيّة .

قال الله تعالى : ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ ﴾ [الرعد : ١١] .

﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ ﴾ . . من كل سوء . . ﴿ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ ، يعني أن هؤلاء الحفظة يؤدون عملهم بأمر من الله .

وفي سورة البروج ، قال الله تعالى :

﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴾ [البروج : ٢١-٢٢] .

فهذا اللوح المحفوظ ، اختلف العلماء في تفسيره ، فأقرب ما يكون أن المبادىء الكبرى التي خلق الله الخلق وَفقها ، والسنن العظمى التي سنَّها الله في تعامله مع خلقه ، هي في اللوح المحفوظ ، ومن باب التقريب والتوضيح ؛ أن أمةً عظيمةً لها دولةٌ كبيرة ولها أجهزةٌ بالغة الدقة ، لا بد لها من دستورٍ فيه كلُّ الأمور الأساسية ، ويصدر مع هذا الدستور قوانين كثيرة ومراسيم تشريعية ، ومراسيم تفسيرية ، ومراسيم تنظيمية ، إلا أن الأصل أن كلَّ القوانين تنطلق من الدستور ، مثلاً حرية الكلمة ، حرية العمل ، حرية التعلُّم ، حرية التعبير هذه كلها في الدستور ، ثم القوانين تفسرها وتوضّح كيفية الأخذ بها ، فاللوح المحفوظ يضم المبادىء العظمى ، والسنن الكبرى التي يتعامل الله بها مع خلقه في اللوح المحفوظ .

الإمام الحسن البصري يقول : « **إن هذا القرآن المجيد عند الله في لوحٍ محفوظ ، يُنَزِّل منه ما يشاء على من يشاء من خلقه** » .

ويقول الله تعالى في سورة النساء عندما يتحدث عن الأسرة وقوامة الرجل في بيته وأهلِهِ :

﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ

﴿نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ [النساء : ٣٤] .

فأرقى صفة في المرأة أنها تحفظ زوجها ، تحفظ عرضها في غيبة زوجها ، وتحفظ مال زوجها في غيبته ، وتحفظ سرَّ زوجها ، وتحفظ نفسها .

المرأة الصالحة تحفظ نفسها ، لا تسمح لأجنبيٍّ أن ينظر إليها ، لا تلين ولا تخضع بالقول للبائع إذا اشترت ، لا تضرب برجلها ليظهر ما يَخْفى من زينتها ، كلامها جاد ، مشيتها جادة ، نظراتها مستقيمة ، لا يزيغ بصرها ، لا تسمح لأحدٍ أن يطمع فيها . . فقد قال تعالى :

﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ [الأحزاب : ٣٢] .

﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور : ٣١] .

أما هذه التي تبدو بأكمل زينة ، تثير كلَّ الناس حولها ، لسان حالها يدعو الآخرين إلى التحرش بها ، هذه المتبرجة ، المتفلِّتة التي لا ترعى حقَّ الله في خروجها ، فلسان حالها يدعو الناس إلى الدنو منها والطمع فيها ، فالمرأة المؤمنة تحفظ نفسها ، وتحفظ مال زوجها ، وتحفظ سرَّ زوجها .

روي في الحديث الشريف « **إني لأبغض المرأة تخرج من بيتها تجر ذيلها تشكو زوجها** » .

عَنْ ثَوْبَانَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « **الْمُخْتَلِعَاتُ هُنَّ الْمُنَافِقَاتُ** » وَرُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « **أَيُّمَا امْرَأَةٍ اخْتَلَعَتْ مِنْ زَوْجِهَا مِنْ غَيْرِ بَأْسٍ لَمْ تَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ** » [سنن الترمذي] .

وعن ابن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « **لا ينظر الله تبارك وتعالى إلى امرأة لا تشكر لزوجها وهي لا تستغني عنه** » [رواه النسائي] .

فالآية الكريمة : ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ﴾ .

حدثني أخ يعمل في طلاء البيوت قال لي : كنا مجموعة من العمال نعمل في البيت وبه غرفة مغلقة من الداخل ، الرجل حريص على أهل بيته وفي تلك الغرفة زوجته ، قال : في أثناء غيبته خرجت بثيابٍ لا يعقل أن يراها فيها إلا زوجها ، ثياب شفافة ، إنها متفلِّتة خرجت بين الشباب في غيبة زوجها ، فإن هذا السلوك لا يكون من مؤمنة ، المؤمنة تحفظ نفسها ، وتحفظ سرَّ زوجها ، وتحفظ مال زوجها ، وتحافظ على سمعته وكرامته من خلال حشمتها وصونها لذاتها .

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « **خير النساء التي إذا نظرت إليها سرتك ، وإذا أمرتها أطاعتك ، وإذا غبت عنها حفظتك في نفسها ومالك** » قال : وتلا هذه الآية ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ ﴾ إلى آخر الآية .

والحفظ أيضاً ورد في القرآن الكريم : ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴾ [الصافات : ٦ـ٧] .

أي إذا استرق الشيطان السمع أتبعه شهابٌ ثاقب .

ما منّا واحدٌ إلا ويتمنى أن يحفظه الله . . إلا أن النبيّ عليه الصلاة والسلام كان أديباً مع الله كان يدعو ويقول :

« مَنْ كَانَتْ لَهُ حَاجَةٌ إِلَى اللهِ أَوْ إِلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ فَلْيَتَوَضَّأْ وَلْيُصَلِّ رَكْعَتَيْنِ ، ثُمَّ لِيَقُلْ : لا إِلَهَ إِلا اللهُ الْحَلِيمُ الْكَرِيمُ ، سُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ، الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مُوجِبَاتِ رَحْمَتِكَ ، وَعَزَائِمَ مَغْفِرَتِكَ وَالْغَنِيمَةَ مِنْ كُلِّ بِرٍّ وَالسَّلامَةَ مِنْ كُلِّ إِثْمٍ ، أَسْأَلُكَ أَلا تَدَعَ لِي ذَنْباً إِلا غَفَرْتَهُ ، وَلا هَمًّا إِلا فَرَّجْتَهُ ، وَلا حَاجَةً هِيَ لَكَ رِضاً إِلا قَضَيْتَهَا لِي ، ثُمَّ يَسْأَلُ اللهَ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ مَا شَاءَ فَإِنَّهُ يُقَدَّرُ » . [سنن ابن ماجه] .

والحفظ له موجبات ؛ احفظ الله يحفظك ، هذا هو أهم مافي البحث الذي نحن بصدده ، احفظ أمر الله يحفظك الله عزَّ وجلَّ . . إذا سألت فاسأل الله ، وإن استعنت فاستعن بالله . . أما الأساس فهو أنَّك لن تستطيع أن تصل إلى حفظ الله عزَّ وجلَّ إلا إذا حفظت أمره ، يراك حيث أمرك ويفقدك حيث نهاك ، إن حفظت أمر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فالله يحفظك ، وحفظ الله شامل يحفظ لك عقلك من أن يصيبه الخلل ، يحفظ لك حواسَّك وأعضاءك ، يحفظ لك زوجتك وأولادك ، يحفظ لك بناتك ، يحفظ لك مالك ، يحفظ لك سُمْعتك ، يحفظ لك دينك ، يحفظ لك كرامتك .

يابن عمر ، لا يغرنك ما سبق لأبويك من قبل ، فإن العبد لو جاء

يوم القيامة بالحسنات كأمثال الجبال الرواسي ظن أنه لا ينجو من أهوال ذلك اليوم ، يا ابن عمر ، دينك دينك إنما هو لحمك ودمك ، فانظر عمن تأخذ ، خذ الدين عن الذين استقاموا ، ولا تأخذ عن الذين مالوا .

أيضاً هذا الاسم محبب للإنسان . . فالإنسان حينما يرى كل شيء له محفوظاً فهذه هي الاستقامة ، وعزة الاستقامة ، الاستقامة عين الكرامة ، أنت إذا استقمت على أمر الله حفظ الله لك كلَّ شيء ، أنت في ظلِّ الله . . ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ . . فقد قال الله تعالى :

﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ [الطور : ٤٨] .

هذه الآية موجَّهةٌ للنبي عليه الصلاة والسلام ، وكلُّ آيةٍ موجهةٍ للنبي عليه الصلاة والسلام ، للمؤمن منها نصيبٌ على قدر استقامته وإيمانه وإخلاصه . . ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ . . وإذا كان الله معك فمن عليك ، وإذا كان عليك فمن معك ، وحفظ الله يغني عن كلِّ شيء .

فالنبي عليه الصلاة والسلام وهو في غار ثور كان دمه مهدوراً ، مئة ناقة لمن يأتي به حياً أو ميتاً ، ودخلا إلى غار ثور ، قال الصديق : لو نظر أحدهم إلى موطىء قدمه لرآنا . قال النبي الكريم ﷺ : ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾[التوبة: ٤٠] ، حفظه الله ، فقد تبعه سراقة على حصانه ، غاصت قوائمه في الرمل ، طلب الأمان لكنه عاد ثانيةً فغاصت قوائم فرسه في الرمل ثانيةً فاستسلم لأمر النبي ﷺ .

فإذا كان الله معك فمن عليك ؟ إذا حفظك الله فأي شيء يضرك ؟! واللهِ ليس في الأرض كلها جهةٌ مهما قويت تستطيع أن تصل إليك ، وإذا تَخلّىَ الله عنك ، فقد أسلمك لعدوك ، فقد قال الله تعالى :

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ [التوبة : ٢٥] .

أنت في كلِّ يوم لك حالان مع الله ، حال التولِّي ، وحال التخلِّي ، إذا قلت : أنا ، أصابك التخلِّي ، وإذا قلت : الله ؛ نالك التولِّي ، أي إذا وحَّدت الله تولاَّك الله ، وإذا اعتددتَ بنفسك ، بمالك ، بقوتك ، بعلمك ، بذكائك ، بخبرتك تخلَّى الله عنك . تخلَّى عن أصحاب رسول الله ﷺ يوم حنين وفيهم النبي ﷺ .

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ ، بينما في بدر قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [آل عمران : ١٢٣] .

فقد كانوا يوم بدر في غاية الضراعة والذلّة بين يدي الله عز وجل فنصرهم وأيّدهم .

أمّا ملخص الملخص . . . فإنه ما منا واحدٌ دون استثناء إلا ويتمنى أن يحفظه الله ، أن يحفظ له صحته ، هناك أمراض عُضالة إذا ألمَّت بالإنسان جعلت حياته جحيماً لا تطاق ، يتمنَّى كلٌّ منا أن يحفظ الله له صحته ، وأهله وأولاده وبناته وأصهاره وبيته وماله وتجارته وسمعته ومكانته .

قد تسمع أخباراً كأنها الصاعقة يرتجف منها كل إنسان عاقل . . قال لي رجل ابنتي حاملة ، [نقول حامل إذا أردنا الوصف الحقيقي فإذا حملت شيئاً على ظهر أو رأس فهي حاملة لاغير] ، ابنتي حاملٌ من ابني . أين مكانته أمام

الأسرة ، الابن في السجن والبنت في المشفى هذه مشكلة ، مشكلة كبيرة جداً ، وإني أعقّب على هذا فأقول : لقد قصّر في تربية أولاده ومراقبتهم والالتجاء إلى الله ليعينه على توجيههم ، وتخلى عن الله ، فتخلى الله عنهم وعنه ! و هنالك إنسان سمعته طيبة بيته نظيف ، علاقاته كلها إيجابية ، وعمله جيد ، محفوظ في مكانته وسمعته ، موفَّق في عمله ولعل هذا حفظَ اللهَ فحفظ اللهُ عليه بيته وأهله فقد قال يعقوب لأولاده كما حكى الله عنه : ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ .

لا تعتمد على غير الله في الحفظ ولا في أيّ أمر من أمورك ، أما القول الفيْصل : احفظ الله يحفظك ، أي كن لي كما أريد ، أكن لك كما تريد ، عبدي أنت تريد وأنا أريد ، فإذا سلّمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد ، وإن لم تسلّم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد ثم لا يكون إلا ما أريد .

* * *